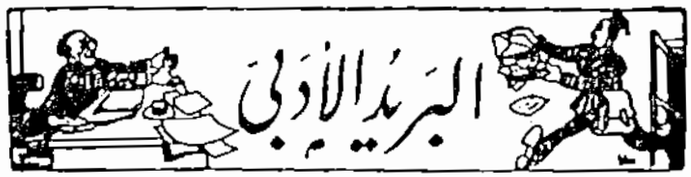

رد على نقد :

نشر الأستاذ « زينون » فى الثقافة نقداً لكتبى الثلاثة : أحمد عرابي وإبراهام لنكولن ومن وراء الستار ؛ ومما جاء فى نقده قوله : « وأحب أن أقدم للقارىء مفتاحاً لكل ما كتب الأستاذ الخفيف وما سيكتب ، بل مفتاحاً لكل ما تحدث به إذا ما تحدث ، فقد وجدت هذا المفتاح إذ كنت أقرأ له هذه الكتب الثلاثة التى أخرجها وهو يجمع ظاهرتين معروفتين فى علم النفس ، أما أولاهما فهى ما يسمونه اتحاد الدرك بالمدرك وأما الثانية فهى ما يسمونه بتفكير المتمنى »

جعل الأستاذ هاتين الظاهرتين أساس ما أكتبه بل ما سأكتبه وذلك أعجب ، وقال « فلا تقرأ له هذا التاريخ الذى سطره بحيث تحاسبه الحساب العسير الذى تحاسب به مؤرخاً أخذ على نفسه أن يثبت لك الحق أجرد بارداً ، بل اقرأه قراءتك لأديب قادر ماهر أضفى خياله ألواناً زاهية على ما يكتب وما يصور من مواقف » .

عجبت إذ قرأت هذا ، وازداد عجبى لأن كاتبه هو الأستاذ « زينون » بالذات ، وهو من أعلم رجاحة عقل وصدق نظر وسعة اطلاع ، وإنه ليعلم كما أعلم أن تفكير المتمنى إن جاز فى القصة فهو لا يجوز فى التاريخ ؛ لأن التاريخ مسائل تقرر أو تنقض بالدليل فإن « جرى فيه الفكر بما يتمنى الكاتب أن يكون هو الواقع » لم يعد تاريخاً وإنما أصبح قصة . والأستاذ « زينون » قد قرأ كتبى كما قال ، وأنا من ناحيتى قد بنيت كتابىّ وبخاصة الأول على الوثائق أستخرج منها الدليل ، وأحسب أنى ما قدمت رأياً واحداً بغير برهان أو عدة براهين أرجعتها إلى مصادرها ، وهذا هو ما تفضل بعض حضرات القراء فأثنوا به على كتابى « أحمد عرابى » ؛ وإذا كان الأمر كذلك فلى أن أعجب من تفكير المتمنى » هذا الذى نسبه إلىّ الناقد الفاضل وجاء فى نقده قوله « اقرأه قراءتك لخطيب أخذ يلوح بيديه لسامعيه ويرفع ويخفض من صوته ، لا يعنيه أن يقول الحق جافاً كما تفهمه العلوم ، بل يريد أن يقع من نفوس سامعيه بما أراد أن يقع » والأستاذ « زينون » يعلم كذلك كما أعلم أن لكتابة التاريخ طرقاً منها أن يكون حول شخصيته ، ولهذه الطريقة دعاة كثيرون اليوم وهو فى هذا الحال مزج بين الأدب والتاريخ كما يصنع أساطين كتاب التراجم المحدثين من أمثال زويج ولدوج وكما فعل بلوتارخ فى الأقدمين ، ومن المؤرخين من اصطنع هذا فى غير الشخصيات كذلك ، وما أظن خلود جيبون إلا لأنه كان أديباً فى كتابه ومؤرخاً معاً ، وأنا أستطيع أن أفعل مثل ذلك على قدر طاقتى ، وأحسبنى فعلته فى كتابى فأوردت الحقائق وتقيدت بها ثم أضفى خيالى الأدبى ما شاء « من ألوان زاهية على ما كتبت وما صورت من مواقف » ولكن دون أن أضحى بالحقائق أو أفكر تفكير المتمنى ؛ وإذا كان الأستاذ الناقد قد أورد ما أورد من الشواهد ليؤيد بها خطابتى ، فليت شعرى لم اقتصر عليها ، ولم يورد شواهد من براهينى ومناقشاتى وتحليلى ؟ أذلك لأنه يريد أن يجعلنى على رغمى أفكر تفكير المتمنى ؟

أؤكد للأستاذ الفاضل « زينون » أنى ما أردت بردى هذا دفاعاً عن كتبى بقدر ما أردت أن أبرهن له أن ما سماه تفكير المتمنى لن يكون فى كتابة كاتب وتسمى مع ذلك تاريخاً قط ، وأنا أعاهده وأشهد القراء على عهدى هذا ، أنه إن دانى على شىء فيما كتبت لا يستند إلى دليل ، أخطأت فيه أو أصبت ، فلن أكتب تاريخاً بعد ذلك أبداً ، ولعله لا يتبرم ، بما فى عهدى هذا من خطابة ، ولعله واجد فيه منطقاً ، أو على الأقل ، شيئاً يشبه أن يكون منطقاً .

أما عن وراء الستار ، فإنه يقول : إن دقة التصوير التى زادت فيه عن حدها قد أنقصت بعض الشىء من قيمة هذا الكتاب الفنية ، وأحب أن أقول إن هذه الدقة التى زادت عن حدها هى أقوى مدح يوجه إلى مثل هذا الكتاب وهى جوهر فنه ، فهو ليس بقصة فيها أحذف شيئاً من الطبيعة وأضيف شيئاً » ، وإنما هو « من وراء الستار » أعنى أنى أكتب ما أرى وكلما توافى لى من الدقة قدر كنت إلى هدفى أقرب ... وليت لى حقاً هذه الدقة التى زادت عن حدها ، فإنه لم ينلها إلا كل طويل الباع من القصصيين الواقعيين وهى مجال سبقهم وموضع تبريزهم

هذا ، وللأستاذ « زينون » صادق مودتى وعظيم شكرى على ما تفضل به علىّ من ثناء أرجو أن أظل عاملا عليه .

المقتبس